الفصل الثامن عشر

نكـــوص

حملت الريح آخر كلمات رضوان حملاً ثقيلاً فأسقطتها إلى الأرض لتقبع فيها وتتجسد واقعاً مريراً.

أزيز الرصاص ودوي المدافع لم يهدأ منذ أن انتزع الغزاة قطعة من الأرض بل قطعة من قلوب المقاومين، ظل القتال متصلاً حتى اليومين اللاحقين، مددهم وعتادهم في ازدياد يحثهم على الانتشار كوباء يتربص بالجسد ليفتك به، كانوا يتربصون بالمدينة فانتشروا في معظم أحيائها، ويتربصون برجالها الذين دافعوا بصدور عارية شاهرين بنادقهم في وجوه أعدائهم، يقوي عزيمتهم أنهم أصحاب الحق مهما أريقت دماؤهم في سبيل ذلك ومهما كانت التضحيات كبيرة والثمن باهض، يزيد حماستهم ازدياد عددهم، رجالٌ من مختلف مدن عدن أقبلوا سنداً ومدداً إلى خور مكسر يجمعهم لواء واحد تحت ظلاله، إنه لواء الجهاد، أصبحت ثكناتهم متفرقة في أحياء المدينة كلها.

ومع اشتداد القتال في كل ضاحية من ضواحيها، ظلت التكبيرات الداعية للجهاد تصدح في كل مساجدها ليلبيه كل من يستطيع حمل السلاح بغض النظر عن خبرته القتالية، التكبيرات وأصوات الرصاص كانا متقارنين، لم يكف الاثنين، ولم يكف الطرفين عن القتال.

وشد أزرهم أن جلب مقاومو مدينة (التواهي) معهم ثلاث دبابات إلى المدينة بعد أن خاضوا معارك مماثلة في مدينتهم محاولاً العدو انتزاع الميناء منهم؛ لكن العدو لم يفلح، استقبل الرجال

الدبابات كما استقبل أبطالها بالتهليل وهتافات الفرح، وتقدموا بها ليستعيدوا ما فقدوه، وما وقع تحت سيطرة الغزاة .

في المواجهة الأولى، وبعد أول إطلاق، دمر الغزاة أحدها وفقدوا من كانوا بها بإصابة دقيقة، تسلل شيء من العجز إلى النفوس، عدوهم مدرب يملك خبرة عسكرية عالية، أما هم، فمن منهم الذي قاد دبابة ذات يوم؟ لا أحد، لم يكن سقف طموحاتهم قيادة مركبة حربية، وإنما ألجأتهم الحرب إليها استخدموها، لم يكن يعرفوا عن هذا السلاح شيء إلا قوته، ورغم الارتباك الساري في عقولهم وقلوبهم وقتل الكثير منهم وانسحابهم المستمر بسبب عتاد عدوهم وسلاحه وتساقط الأحياء واحداً تلو الآخر، إلا أنهم ظلوا صامدين، مؤمنين بهدفهم بقوة، قاتلوا كحرب الشوارع، وقاتلوا كجيش بالدبابتين الأخريين التي استطاعت تدمير مدرعتين ودبابة، فرحة لا توصف ورجفة رعب دبت في صفوف أعداءهم جعلتهم يتقهقرون كثيراً، استبشر المقاومون بهذا، إلا أن الانسحاب الأعداء لم يكن إلا استعداداً لتكتيك عسكري جديد.

في مساء اليوم الثالث للقتال، أقبل جمع من رجال المقاومة من حي الأحمدي وحي مبنى جامعة عدن وحي أبي ذر الغفاري وحي السعادة والساكنين قرب الكورنيش يخبرونهم باستيلاء الغزاة على طريق ساحل أبين، فاضطروا للانسحاب، ومدرعاتهم وآلياتهم تسعى للالتفاف خلفهم وتطويق المدينة ومحاصرتها تماماً، كما يسعون للهجوم على كريتر، اضطربوا، فقال أحد رجال المدينة مرتبكاً:

-إذا تم ذلك سنقع في ورطة كبيرة، وستسحقنا دباباتهم من كل الجهات، سنقع في مصيدة ولن نستطيع فعل شيء.

سأل آخر:

-ما الحل؟

-وهل سننتظرهم؟ لنهجم عليهم بما لدينا من عتاد، سنهجم عليهم بالدبابتين وندمر قواتهم قبل أن يدخلوا.

-أوافقك الرأي، لا بد أن يعلموا أننا لن نترك أرضنا ليعبثوا فيها.

قال شادي:

-المهم أن نحذر من وقوع الحصار.

تقدم رجل آخر وقال:

-اقترح أن تتحرك مجموعة منا لمساندة إخوتنا في كريتر، لا بد أن نساندهم بسرعة ريثما يصلنا رجال آخرون، لا شك في أنهم سيتلقون الهجوم أولاً.

-أنت من التواهي، أليس كذلك؟

-نعم، سنحاول أن نساندهم ونمدهم ببعض ما لدينا من أسلحة ومعدات طبية، وسيصل الرجال إلى هنا قريبا، سنحاول منعهم من التقدم واستفحال طمع الاجتياح لباقي المدن.

-لا بأس، المهم إني سأبقى هنا ولن أغادر موقعي حتى لو كانت النهاية، سأدافع عن مدينتي، وليعملوا أننا لن نتركهم يهنئون بشبر واحد منها ونحن على قيد الحياة، سنموت دفاعا عن أرضنا وعرضنا، الموت بشرف ولا مذلة الانسحاب.

هتف غالبية الرجال بعده في حماس مؤيدين رأيه، تطلع شادي إليهم وفي قلبه أسى (أن يكون الحديث عن الموت شيئاً عادياً)

رنت في أذنيه عبارة رضوان، ليس الحديث عن الموت وحده بل عن كل شيء متعلق به: رائحته، شكله، ما يحبه، وما يكرهه أيضاً، الحرب هي شريكة الموت، لا تظهر في أرض إلا وظهر معها، تتعدد وسائله، ليس بالسلاح وحده، بل بقطع وسائل العيش، حرمان الساكنين منه، قصفوا كابلات الكهرباء وأغرقوا المدينة في الظلام، دمروا أنابيب المياه ظلت تنزف وتستنجد دون أن تجد من يسعفها، حرموا الأهالي والمقاومين منها ليبحثوا عن منابعه، وتقنصوا لكل خطوط الإمداد بالغذاء لإغاثة أهلها بل واستحوذوا عليها أحياناً كثيرة، وقطن قناصوهم على أسطح المباني الخاوية ليستهدفوا كل حي، ربما حتى لو كان كلبا لاشتبهوا به واعتبروه مقاوما ضدهم، المدينة تتوهج بأضواء الموت.

انقسم الرجال هنا، مجموعة استعدت بالدبابتين، بينما انطلق الآخرون ناحية كريتر، وكان شادي ورضوان ورفاقهما معهم.

الأيام كلها عنده كانت متصلة، لا شيء إلا أصوات الحرب، ومظاهر القتل والقتال، ورغم ذلك ظل مؤمنا كغيره بقضية أرضه، مدافعاً، ينطلق ويُطلق معهم.

في صباح الثامن والعشرين من مارس وهم في طريقهم نحو جولة العاقل جنوبا باتجاه كريتر على متن سياراتهم، تزلزلت الأرض من تحتهم، فاجأتهم وأفزعتهم، كان دوي انفجار عنيف جداً، صاح:

-ما الأمر؟ أين هذا الانفجار؟

-هناك.

لم تتأخر الإجابة عنهم، رأوا أمامهم من بعيد، دخان كثيف يتصاعد من خلف الجبال وكأنه فوهة بركان يزمجر، صدم وقال:

-إنه... من جهة جبل حديد.

عقد الرجل حاجبيه، وقال في سخط:

-هناك يقع أكبر مخزن للسلاح في البلاد، يفجرونه قرب المناطق السكنية!! الأوغاد يعلمون عنه، لقد استهدفوه متعمدين، هل تجاوزوا المقاومين؟ ألم يحاولوا منعهم؟ النيران لن تخمد بسهولة، ولن ينحصر في مكانه، ستتوالى الانفجارات.

-رباااه رحمتك بالأبرياء.

تابع الجميع سحب الدخان الكثيفة وسلاسل الانفجارات التي توالت، ولمحوا حتى شررا يتطاير حتى وصلوا إلى الجبال المطلة على الجولة حيث كمن أفراد المقاومة هناك، كانوا نحو خمسين رجلا، رحب قائدهم بهم، فسأله رضوان عما حدث، فرد عليه:

-المناوشات تجري بقلب المدينة أيضا والمقاومون هناك يسعون لاستئصالهم لقد ظهروا في المدينة فجأة كما حدث في بقية المدن، ووصلوا للمخزن ليلة أمس، وسمع الناس أصوات انفجار وقتها، وهاهم يعيدون الكرة، يبدو من أنهم قد غنموا ما أرادوا وفجروا الباقي.

-ألم تحاولوا الاستيلاء على عتاده قبلهم؟

-صعب، لقد انشغلنا بقتال من وجدناهم والسعي لإبادتهم في قلب المدينة، وقوات الجيش كانت موجودة، لكن لم نكن ندري بأنهم سيتركونها وراءهم ويرحلون، أما نحن فقد توجهنا إلى هنا فور سماعنا بالاستيلاء على ساحل أبين.

-وكيف الوضع هناك الآن؟

-لقد أصيب الناس في المنطقة القريبة، الإصابات كثيرة والنيران لازالت تستعر، والمقاومة ورجال المنطقة يحاولون إخمادها.

آلمهم ما سمعوا، فقال شادي:

-هل في وسعنا فعل شيء لهم؟

-لا شك في أننا سنحتاج المزيد من المستلزمات الطبية، عدد الإصابات كثيرة ولم يحص حتى الآن.

قال رفيقهم من التواهي في أسف:

-في الواقع ليس لدينا الكثير، أحضرناها لأجلكم وكذلك بعض الذخيرة، كما جئناكم كمدد من خورمكسر حتى نصد معكم كتائب الأعداء المقبلة على المدينة.

ناوله إياها، فرد عليه مبتسما:

-لا تقلقوا علينا، هذه الجبال ستحصننا ووجودنا في أعلاها سيمكننا من رؤيتهم قبل أن يرونا ولدينا دبابة عند العقبة ستردهم بإذن الله، فاطمئنوا في سعيكم للعودة إليها، فهي في أشد الحاجة إلى كل رجال عدن.

-ولكن...

هز الرجل رأسه وقال:

-لا تقلقوا، وإن شئتم في إمكانكم البقاء الليلة والعودة غدا.

-كما تريد.

قضوا اليوم بين أحضان الجبال يراقبون الطريق، تطلع شادي إلى حصاها وترابها، لم يتخيل أن يقضي يوماً واحداً في العراء وهو في قلب بلاده؛ لكن الأمر مقبول ومنطقي الآن في ظل هذه الظروف، كل شيء كان لا يزال هادئا، ولم تصلهم أي أنباء عن تقدم الغزاة كما كانوا يتوقعون، احتاروا هل قرر الأعداء الالتفاف على خورمكسر أو لاً؟

وفي اليوم التالي لم ينتظروا كثيرا حين داهمهم القلق، فسلكوا طريق العودة مبكراً إلى جهة دوار (ريجل)، ولما اقتربوا منه هتف أحد ركاب سيارة القيادة في صدمة:

-دبابات أمامنا.

لعل أفراد سيارة القيادة كانوا أول من تلقفتهم المفاجأة، أما البقية فقد انتبهوا مع هتافه، من جهة الخط البحري وجدوا أنفسهم وجها لوجه مع ثلاث دبابات، أطلقت الأولى قذيفتها

نحوهم دون تردد، حادت السيارات عن الدرب لتتجنب القذائف وتشكلت جدران الدخان أمامهم، اهتزت الأرض من تحتهم، تلا ذلك انضمام شاصات أخذت تلاحقهم وتمطرهم بالنيران، في لحظة الانسحاب ظل الجميع يطلق النيران نحوهم، وقذائف الدبابات تحاول إصاباتهم، أخذوا ينخفضون ويطلقون بين الفينة والأخرى، دارت معركة انسحاب غير المتوقعة، والنيران لا تزال تغدق عليهم بكرمها، صاح رضوان في حزم:

-إلى الدكة.

انعطفت سيارة القيادة تلف الدوار ليتجهوا غرباً ثم جنوباً باتجاه الدكة، تبعتها بقية السيارات والرجال يتناقلون كلمتيه:

-إلى الدكة.

-إلا الدكة!

تمتم شادي بذلك، فالكلمة بالنسبة له تعني شيئا آخر...

الدكة هي جزء من المُعلا، أي إن المعارك توشك على اقتحام مدينته، أخته وأمه لا تزالان هناك، لم يكن يتخيل أن تمتد المعركة إلى أقصاها هكذا، لم يعتقد أن تستمر خلال هذه الأيام القليلة وبكل تلك الشراسة؛ بل اعتقد بأن صمود المقاومين وحبهم لأرضهم سيدفع أذى الغزاة عنهم وعن مدنهم، لم يكن هذا كافيا، كانوا قوة مسلحة لا يجب الاستهانة بها وتعاظمت مع الوقت، قاتل في خور مكسر بقوة ولم يستطع دحرهم، لو صمد الآن هل سينجح؟

لم يكن يملك الإجابة الشافية التي ستطمئن قلبه، تسلل الرعب على ذويه إلى شغاف قلبه، صمد وقاتل ورأى المجازر الوحشية للغزاة، والآن هم يسعون خلفهم، أيقظه من شروده صوت انفجار خلفهم، أصابت القذيفة سيارة في وسط الطابور فدمرتها، وتسببت في عرقلة من هم بعدها.

قاوم الرجال حوله دمعات الألم وهم يطلقون الرحمات عليهم مع رصاصهم وقد أقبلوا على مشارف الدكة.

لم يغمض له جفن منذ وصوله إليها، ليس بسبب هجمات الأعداء التي ظلت تلحق بهم طوال اليوم، بل لقطعتين من قلبه تركهما خلفه، وها هو الموت يلاحقه ويسعى خلفهما، قرر أن يصمد يقاتل معهم، علهم ينجحون،؛ لكنه افتقد الحماسة في الاستمرار لم يعد يمتلكها، حتى خبر استعادة المطار بدعم من طيران عربي لم يغير في فكره أو يدفعه للتفاؤل، ولم يهلل فرحا لسماعه كما فعل أقرانه، ابتسم ابتسامة هادئة ثم خبت، هناك أمر آخر يشغل فكره.

ومضت على وجوده بالدكة ثلاثة أيام والطرفان يردان هجمات بعضهما، إلى أن صدمه سيطرة الأعداء على جبل حديد وكل المرتفعات القريبة منه، ويبدو من أنهم استطاعوا التغلب على مقاومي كريتر الذين كانوا يحاولون حماية الجبل منهم بدبابتهم الوحيدة عند العقبة الواقعة في الجنوب الشرقي من المعلا، هل تمكن المتمردون من قصفها أم أن ذخيرتها نفذت عليهم فلم يستطع المقاومون فعل شيء ببنادقهم؟

تساءل في نفسه لكن التساؤل لكم يكن يجدي نفعا، فالنتيجة واحدة، لقد خلت الطريق لهم، وتمكنوا من واجتياح الجبال بدباباتهم ليكون القصف أعنف والقتل مثالياً للأبرياء، تساقطت حممهم على المعلا وكريتر والقلوعة بشكل أفضل من سابقه.

عند هذا الحد لم يفكر إلا في الهرب وإنقاذ أهله، لم يكن يرغب فيه، ولم يكن يريد أن يخبر رضوان، كان خجلا من حديثه، حاول في تلك الليلة الهرب فلم يستطع، إذ أوكل إليه هو ومجموعة من رفاقه لفحص المنطقة على مشارف الدكة باتجاه خور مكسر حين هدأ القتال قليلا، وفي الليلة التالية لم ينتظر، بعد صلاة الفجر والتي أداها مع رضوان وعشرة من زملائه في مسجد مصعب، توارى من أمامهم متظاهرا بعودته إلى المخبأ الذي لم يكن إلا أحد البيوت المحطمة، تسلل وهو يتوارى عن أنظار البقية، نكص على عقبيه عائداً إلى منزله، ثم أطلق ساقيه للريح رغم ثقل الليالي الثلاث عليه.

وحين استقبلتاه لم يكن يدري ما الذي يجب أن يخبرهما به، كان خجلا من نفسه، اغتسل وأراح جسده على فراشه كما طلبت منه أمه لكن قلبه لم يرتح أبداً، كان حزيناً بائساً، حاول تهدئة نفسه، إن خسر معركة نفسه على الأقل لم يفقد أهله؛ لكن ما حدث لأخته كان قاصمة الظهر بالنسبة له، لقد فشل في كل شيء.

فشل في الصمود مع أقرانه إلى النهاية

فشل في إنقاذ أهله والهرب بهم.

ظل يهتم بها بعد أن أفاقت، وحين خرج في ذات الصباح لشراء بعض الأدوية لها سمع الناس وهم يتناقلون خبر تطويق المتمردين للمدينة، والمقاومون قد انتشروا داخل الأحياء بعد أن كثفت الدبابات وأسلحة الدوشكا عليهم في الدكة، وتحولت المدينة إلى ساحة لحرب شوارع، ولم يتورع الغزاة في تكرار ما فعلوه في خور مكسر، تساءل:

ترى ماذا حل برفاقه؟ ماذا حل بزميل دراسته؟ حتى لو كان معهم لن يستطيع تغيير المعادلة؟ وكيف سيكون وضع ضياء حين تعلم بما فعله المتمردين بالمدينة؟ هل يجب أن يأخذها إلى مستشفى (باصهيب) بالتواهي لتعالج بشكل أفضل؟ أم يغادر المحافظة مباشرة فور عثوره على منفذ للهرب؟

هكذا تساءل في نفسه مخفياً ألمه وحزنه عنهما، وحين كان على وشك مغادرة المجمع رأى عدداً من الرجال يدخلون وهم يحملون جرحى، والممرضين يستقبلونهم بردهة الطوارئ، تأمل وجوه بعضا منهم، كانوا رفاقه من مقاومة المعلا، أراد أن يقترب منهم لكنه أحجم، تملكه الخجل من نفسه، القهر في أعماقه يمزقه، لم ينجح في أي شيء مما سعى إليه، ابتعد ليغادر المجمع مؤقتا.

-شاااادي!!

التفت ليرى نفسه وجها لوجه مع رضوان، رأى في عينيه بركانا ثائرا حين ناداه، تسمر مكانه ذاهلا وهو يراه يشهر مسدسه نحوه ويضع فوهته على جبينه ويزمجر في وجهه غاضبا:

-أيها الخائن الجبان، كنت أثق فيك ثقة كبيرة، هربت، هربت وتركت موقعك! كنت قلقاً عليك، خشيت أن يكون أحدهم قد غدر بك أو اختطفك، ظللت أبحث عنك، رغم طول بحثي وقلقي لم أصدق رفاقي حين قالوا لي:

خاننا وهرب.

ماذا فعلت للأعداء يا عميل؟ هل أخبرتهم بمخبأنا حتى هزمونا في الدكة؟ أجب يا جبان.

ظل صامتا لم يرد بحرف، تيبس ريقه وعلقت لسانه بقاع فمه، نظر مرافقو المرضى والجرحى إليهما في دهشة، بينما عاد رضوان للصراخ مجددا:

-أجب، لم أنت صامت هكذا؟ بم كافأوك لتبيع رفاقك؟

اجترع غصة مرارة بصعوبة وحرك شفتيه ليقول:

-بحرق أختي.

اتسعت عينا رضوان في ذهول، بينما زم شادي شفتيه محاولا أن يغالب دموعه، ثم قال:

-خذلتكم هذا صحيح؛ لكني لم أخن أحد، تركت أمي وأختي خلفي، لم أستطع إجبارهن على الرحيل حين رفضتا ذلك فبقيا في انتظاري، لم أستطع ترتيب أموري كما وعدتك يا رضوان، لكن، لكن... حين وصلت جحافل الأعداء إلى الدكة لم أحتمل فكرة أن يصيبهما مكروه وأنا قادر على إنقاذهما فهربت منكم، لم يكن الأمر بيدي كنت مجبراً مجبراً، أتفهمني يا رضوان؟ لم أكن مخيرا أبدا، كنت داخل عاصفة في قلب هذه العاصفة... أأمضي معكم وأترك

أهلي؟ أم أترككم وأمضي معهما؟ ومع ذلك لم أوفق في أي شيء، دمر منزلي، وأصيبت أختي إصابة بالغة كدت أفقدها... لو كنت مكاني ماذا ستفعل؟ أجبني أرجوك.

ارتخت يده التي تحمل السلاح، وقد شعر بمرارة الألم الذي تجرعه قلبه، فعانق صديقه بقوة وهو يقول:

-آسف، اهدأ.

خرجا معا من أسوار المجمع إلى الشارع المقابل له، أفواج الجرحى وجثث القتلى لا زالت تتوافد إليه، جلسا معا، قال شادي:

-بل أنا من يجب أن يعتذر إليك.

تنهد رضوان بعمق وقال:

-خيارات الحياة صعبة، لا ندري كيف نجد أنفسنا فجأة أمامها، تغتال عقلنا بالتشتت.

-ومع ذلك أشعر بالذنب، كان يجب علي أن أخبرك لكني لم أجرؤ، أتمنى ألا يكون هربي سببا في تخاذل الرجال.

-لم تكن كذلك، وإنما الضعف بدأ يتسلل إلى قلوبنا جميعا، رغم أننا لم نبده مثل ما فعلت، لقد شهدت بنفسك هول المعارك، لن نستطيع الصمود إن سمحنا للضعف بأن يستحوذ علينا، هؤلاء جبناء لا يغترون إلا بقوة عتادهم، إن واجهونا فقط بنفس سلاحنا أو امتلكنا نفس قوتهم سيهربون.

-صحيح.

نظرا للناس الذين لا يزالون يتوافدون، ثم تابع:

-أتعلم يا شادي، رغم أن خورمكسر محاصرة الآن والمقاومين لا يزالون يقاتلون فيها ولا ينالون الدعم إلا من الطيران العربي وقطع كل الخدمات تقريبا عليهم وإغلاق والمنافذ لتزويدهم بما يحتاجوه من معونة ، إلا أنهم صامدون، حتى الشهداء لم يستطيعوا دفنهم إلا بحديقة الجامعة من شدة الحصار، استيلاءهم على الجبال والمرتفعات ولا سيما جبل حديد ستكون فترة موقتة، وصلتنا أنباء بأنها القوات العربية ستسعى لقصفها وتدميرها.

-أتمنى هذا.

قال وهو يتجرع ألمه:

-الوضع لن يكون باليسير هنا، سقط الميناء في أيديهم بعد أن واجهناهم مواجهة صعبة، فقدت معظم رفاقي، وفقدت... أخي.

صمت للحظات حتى يستطيع تمالك حزنه، فربت شادي على كتفه مواسياً إياه، مدركاً لما في قلبه، فنظر إليه وقال:

- الآن نواجههم في الأحياء لم تعد لدينا خطوط دفاع كما كنا، وقناصتهم منتشرون، والقتلى يتكاثرون والمرافق الطبية لم تعد تتسع لا للجرحى ولا للقتلى.

أغمض شادي عينيه للحظات وهو يقول في ألم:

-لطفك يا رب.

نهض رضوان وهو يقول:

-سأعود لموقعي، ألقاك على خير.

لحق به شادي وأمسك بكتفه، وقال في قلق:

-أرجوك لا تقطع أخبارك عني يا صديقي، طمئني عليك.

هز رأسه وقال:

-سأفعل، اتجه بأهلك إلى خارج عدن، لا تدخل أي مدينة إلا لأجل الخروج من المحافظة، أتمنى متى ما تحسنت حالة أختك أن تجدوا منفذاً إلى الخارج إن شاء الله.

-إن شاء الله.

تعانقا ثم غادره دون أن يبتسم له، هل ما يزال يحمل شيئاً في نفسه عليه أم هو الحزم الذي تحدث عنه في أول لقاء لهما؟

تساءل في نفسه وظل تساؤله عالقاً لشهور.

وما أثار وجع شادي لاحقاً هو انهماكه بمشاغله وعدم سؤاله عن رفاقه وانشغاله بأمرأهله واهتمامه بشؤونهم، حاول الاتصال برضوان فلم يقدر، حتى ذلك اليوم حين كان في طريق عودته للبيت لتناول الغداء، رن هاتفه بعد أن نزل من الحافلة عند الكورنيش والساعة وقتها تقترب من الرابعة عصراً، حمله فوجدها مكالمة من رضوان، تهلل وجهه فرحاً وفتح الخط ورد في لهفة:

-رضوان!

أتاه صوته واهناً:

-شادي، أين أنت؟

-أنا بالمكلا، ماذا عنك؟

-أنا لا أزال في عدن.

-هل أنت بخير؟ صوتك متعب.

-أصبتُ وكنتُ في غيبوبة لفترة في المستشفى.

-الحمد لله على سلامتك يا صديقي، ليتني أستطيع القدوم لأطمئن عليك، وأعرف ما جرى لك ولمدينتنا، أرجو ألا تكون إصابتك خطرة.

-لا تقلق أنا بخير الآن، أما ما جرى فسأخبرك عنه، رغم ألمي من هروبك منا إلا أنك جزء منا يا شادي.

-يبدو بأنك لا تزال غاضباً مني.

ضحك

-نعم ولا، الأهم أننا حققنا النصر رغم كل شيء.

-الحمد لله، ومعظم الأهالي بدأوا يعودون للمحافظة.

-ستعود الحياة شيئا فشيئاً إليها، سأرسل لك تسجيل صوتي عبر الواتس فيه كل ما مررت به وما واجهته.

انتبه شادي بأنه لم يتمكن بعد من إدخال خدمة الانترنت لمنزله لكنه أيد قوله ورد قائلاً:

-حسناً سأنتظر.

في المساء طلب من أحد جيرانه من المكلا مساعدته لأجل توفيره، فساعده في ذلك مقابل مبلغ مناسب له اتفقا عليه، ليجد بعدها رسائل رضوان الصوتية الواصلة لحسابه وهو يروي تفاصيل ما جرى بعد رحيله

(الجحيم المطلق هو كل ما يمكن إطلاقه على ما كان يجري حولي.
دمار وخراب وجثث متناثرة في الشوارع كالحصى، وكلاب ازدادت وحشية ونهم حين وفرت لها الحرب طعاماً جاهزاً أغنتها عن صناديق القمامة وأشبعت بطونها الجائعة بدلاً من بطون البشر، بدا لي كلما رأيتها أن حياة الحيوان تسمو شيئاً فشيئاً في هذا الزمن على حياة البشر وكرامته الذي كلما تقدم عام زاد غرقاً في مستنقع المهانة والذل والهوان.
حتى الليل بسكينته وهدوئه وسواده لم يسلم منهم، أزيز رصاص وأصوات انفجارات تقض مضجع السكون فانتهكت حرمته، والنيران المستعرة تحرق أستاره، وتحل محل أنوار الشوارع نست الكهرباء أن تغذيها منذ زمن، والدخان يجتاح حرمة السماء فخلقوا ليلاً غير الليل المعتاد، وأسكنوه البيوت والخرب، وأثقلوا أرواح الأبرياء بالمآسي، فكانت أنهار الدموع لا تكفي لتطفئ نيرانهم، وصيحات البكاء والاستغاثات تصل إلى عنان السماء.
أي جرم اقترفناه لنقتل سوى أننا نريد أرضنا ونريد العيش فيها؟
شبح الموت يختطف المقاوم وغيره دون استثناء، وجحافل الغزاة تسعى لإبادة كل شيء في كريتر والمعلا والقلوعة وتنطلق للزحف نحو التواهي، وبسبب تغلغل العدو في قلب المدن

انسحبنا مرات لنعيد تشكيل صفوفنا في ثكنات كلٌ في مدينته، وهاجمنا وتقدمنا مرات أخرى، وبقيتُ مع مقاومي المعلا، وأمرتُ أهلي بالرحيل مع جيراني إلى التواهي التي كانت لا تزال آمنة وبيد المقاومين هناك، شيء من ضعفك تسلل إلى قلبي يا شادي وأنا أودع أمي أختاي وأخي الأصغر مني وأنا أوصيه لينتبه لهم ويفر بهم كل ما سنحت له فرصة، أرادت أمي أن ترفض مثل ما فعلت والدتك لكني أصررت على قرار رحيلهم، وقلت لها:

-لن أرحل حتى يكتب الله لنا تحرير أرضنا أو الموت بشرف لأجلها.

كادت دموع رجائها ودموع إخواتي تخدرني وتجذبي بعيداً عن هدفي، أسرعت أمسح دموعهن وأقبل رؤوسهن وأعانقهن جميعهن وأنا أقول لهن:

-ادعين بأن يشدد الله من أزرنا.

ونجحت في غرس دعائم الثبات في أرض قلبي، ودعتهن ومضيتا جميعهن نحو المدينة مع بقية النازحين.

حاول الغزاة بدباباتهم ومدرعاتهم تجاوزنا نحن ومقاومي (القلوعة) لأجل الوصول إليها، كنَّا نعلم بأن الصراع الأكبر سيكون الآن لأجل السيطرة على مينائها مثل ما استولوا على ميناء المُعلا، فاستماتنا لأجل حمايتها ودحرهم، كانوا قريبين منا يسمعون أصواتنا ونسمعهم ولا تفصلنا عنهم إلا المتاريس وجدران البيوت، لدرجة أننا لو غفلنا قليلاً لأغاروا علينا وأبادونا، أحمد لله أن منحنا القوة في أرواحنا وأجسادنا لنستمر في قتالهم، فظلت بنادقنا تقذف رصاصها نحوهم دون هوادة لتهبهم الموت والفزع وتجبرهم على الانسحاب وتعرقل

زحفهم لأيام طوال؛ لكنهم لم يستسلموا بسهولة، وظلوا يلاحقوننا ويقاتلوننا في كل ساعة وحين، وكل ما سنحت لهم فرصة، أول اشتباك معهم كان في الطريق الدائري الذي يقع في الجهة الغربية من المُعلا والذي يمثل المدخل الأول لتواهي واشترك معنا مقاومي التواهي، ثم أعادوا محاولاتهم عند المدخل الثاني لها في منطقة حجيف، فكثفوا هجماتهم هم يتقدمون ونحن نتراجع في المدينة كل ما اشتد القصف.

أتذكر ذلك اليوم الذي سقط فيه المطار؟ كان أشد فظاعة ووحشية منه، دكت المقاومة والمدينة تحت وطأة الحصار والقصف، لك أن تتخيل كل هذا يا شادي، المدنيون يهربون ولا مهرب لهم إلا عبر البحر، لم أرَ أهلي منذ ذلك اليوم الذي ودعتهم فيه في المعلا، وظللتُ أدعو لهم بأن يصلوا للميناء ويفروا مع كل الأبرياء.

وحلت المأساة صبيحة السادس من مايو، هُزمنا وقتل الكثير من الشباب، وسقطت المدينة في أيديهم بعد حصار دام شهر ونصف، كنت وقتها قد تعرضت لطلقة نارية في ذراعي وانسحبنا من أمامهم، فإذا بالأعداء يقتلون الهاربين العزل.

قتلوا أهلي يا شادي، نعم، قتلوهم.

صوبوا قذائفهم نحو الميناء وأبادوهم قبل أن يتمكنوا من المغادرة، ماتوا جميعاً، قيل لي بعدها أن هناك من قتل وهو في قوارب النجاة، ومن قتل وهو لا يزال على الساحل، تخضب ساحل المدينة الجميلة بالدماء وحمل أشلاء الناس لتغرق في أعماق البحر.

لا أدري تلك اللحظة ماذا اعتراني، نسيت جرحي، نسيت حالتي، بكيت وصرخت كالمجنون، لم أستوعب ما حدث لحظتها، لم يكونوا مقاومين ولم يحملوا سلاحاً في حياتهم، ولم يتقدموا ليهاجموهم حتى بأيديهم، كانوا يهربون، يهربون فقط، صرت أعدو وأصرخ لم أهدأ ولم أستجمع فتات رشدي إلا حين أمسكني أحد رفاقي من كتفاي بقوة ثم عانقني وقال:

-سننتقم لهم جميعاً.

أرسلني بعدها وظل يتأمل عيني الغارقتين في بحر الدموع، رأيت في عينيه ثورة تتقد، تذكرت بأنه فقد أهله أيضاً، هززت رأسي، نعم، لن يشفي ما في القلب ولن يضمد جرحه إلا الانتقام، الانتقام من كل من انتزع حقنا منها وقتل الحياة الآمنة في قلوبنا، هؤلاء المتمردون المغتصبون لن يكتفوا بجرمهم، والضعف والنحيب لن يفيدانا في شيء، إنهم يريدون محو عدن من خارطة الوجود، وإبادة سكانها من على وجه الأرض.

وبالفعل لم يكتفوا بالمجزرة، هددوا كل سفن الإغاثة القادمة من الخارج لتعين الأبرياء، منعوها من الاقتراب من سواحل المحافظة، واستمروا في إعدام الناس بمظاهر التدمير والحرمان وقطع مقدرات الحياة.

نهاية شهر يونيو، قصفوا صهاريج النفط في ميناء الزيت بالبريقة واندلع حريق لا يقل استفحالاً عما نشب في جبل حديد بل كان أسوأ منه، الصهاريج تنفجر كبراكين، وألسنة النيران تتعاظم والحريق لم يتوقف لأيام، وسحب الدخان السوداء نافست نقاء السماء لتخنق كل الكائنات في عدن، إنهم يريدون إحراق المحافظة كلها، ألم أقل لك إنهم يريدون محوها؟

عدتُ للجبهة بعد أيام قليلة، أعدنا تنظيم أنفسنا مجدداً، وساندنا الطيران العربي الذي ظل يترصدهم من الجو فيقصف آلياتهم ويبيد تجمعاتهم فالتجأوا للأحياء في قلب المساكن حتى يحتموا بالأبرياء من الهجمات الجوية، عندها مُنحنا الأسلحة بالملظات لنترصدهم هم ومدرعاتهم من البر، ثم شاركتنا قوات عسكرية على الأرض ليزداد رعب الغزاة.

كر وفر طال بيننا؛ لكنهم أجبن من أن يستمروا رغم قوتهم، بدأنا تدريجياً نستعيد ما فقدناه، استعدنا خور مكسر والمعلا، الأمل والحزم كانا معنا رغم كل آلامنا.

وفي العشرين من رمضان كنت مع رفاقي في أحد الثكنات بالتواهي، حين فوجئنا بقذائف تنهال علينا، أصبت من شظايا انفجار قنبلة في نواحٍ متفرقة من جسدي ولم أستيقظ إلا بعد أيام، قيل لي بأني قد نزفت كثيراً، وكسرت عظما ساقاي معاً، وأبلغوني بمصرع رفاقي، بكيتهم كما بكيت أهلي وترحمت عليهم جميعاً، حاول من بالمستشفى مواساتي حين أبلغوني بتحقيق النصر وتحرير المدينة، فانتبهت لهتافات الناس تتعالى في الشوارع القريبة، ونقلوا لي ما التقطوه من أجواء الاحتفال عبر هواتفهم، الناس خرجت لتحتفل.

حمدتُ الله على ذلك، كنتُ أؤمن بأن لا شيء سيتحقق دون ثمن، والثمن كان باهضاً جداً يا شادي، هذه هي ضريبة الحروب وهذا هو ثمن الحرية، ونحن البسطاء من ندفعها دائماً.

إني الآن لا أزال في المستشفى ربما ستطول فترة رقودي فيها، أتمنى أن أراك بعدن في القريب العاجل يا رفيقي)

الألم والوهن كان يعتليان نبرة رضوان ويتخللان حروفه، وأحياناً تقطعها عبرات تعالج الحزن والألم، وتفلت آهات من بين شفتيه، لم يستطع شادي أن يميز، هل كانت لألم إصاباته أم لآلام قلبه الذي تجرع من المآسي ما أضناه؟

دمعت عيناه لحال رفيقه وحمد الله على نجاته، ثم قال:

-أسأل الله أن أراك وألقاك على خير يا رضوان، لا بد أن أرتب أمور أهلي قبل أن أعود إلى عدن.

*****